بيروت - الاثنين ٢٨ آب ٢٠٠٦ - السنة ٤٤ - العدد ١٦٢١٤

مدير دار المعلمين قال له: «يا ولد انت الأول ولكن يجب ان يزداد طولك شبراً على الأقل»

شيخ المؤرخين نقولا زيادة... واجه الموت بسؤال ورحل!

كلود ابو شقرا

«لا أخاف الموت، ولو ان التفكير به يحيّرني من حيث هو محطة أم نهاية!» هذه العبارة ظل الدكتور نقولا زيادة يرددها طيلة حياته، ويسعى الى ايجاد أجوبة على حيرته، الا أنه لم يتوقف كثيراً عند هذه الفكرة، بل عاش حياته، محباً لكل لحظة من لحظاتها، نابضاً بالعشق لكل ما يمت الى الحضارة الإنسانية بصلة، فكان المرجع الذي جعل الاكاديميين والناس على حدّ سواء يلقبونه بـ«شيخ المؤرخين»، لا سيما انه اطلق نظرية جديدة في التاريخ تقوم على انه ليس فقط تسجيل الأحداث العسكرية، إنما كل ما يمت الى هذه الحضارة او تلك من آداب وعلوم فولكلور وطريقة عيش وسلوك إجتماعي...

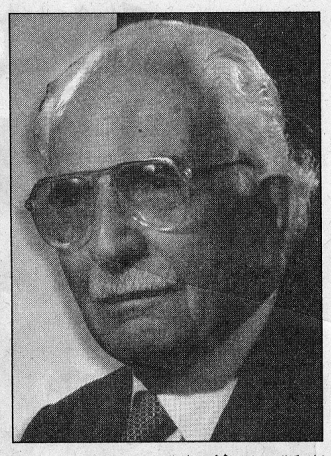

الدكتور نقولا زيادة

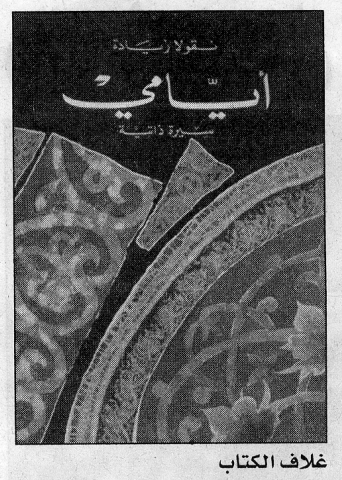

غلاف الكتاب

هذا الكبير الكبير، رحل في عزّ الحرب الاسرائيلية البربرية على لبنان، فتعب قلبه، بعدما رأى المدينة الأحبّ الى قلبه تنوء تحت ثقل أطنان من الدمار والموت. فأغمض عينيه الاغماضة الاخيرة على مآسي اللبنانيين، في حين انه ظل طوال حياته يزرع الفرح والأمل والرجاء في نفوس طلابه واصدقائه وعارفيه، الذين اعتبرهم عائلته الكبيرة التي تساند عائلته الصغيرة.

الدكتور نقولا زيادة الذي أرخ لتاريخ الشرق وشمال افريقيا، سيبقى حاضراً في مؤلفاته وفي المدرسة التاريخية التي أرسى قواعدها على ركيزتين: فلسفة التاريخ وحضارة التاريخ.

من حرب الى... حرب

في الثاني من كانون الاول ١٩٠٦ ولد نقولا زيادة في دمشق. كان والداه من بلدة الناصرة (في شمال فلسطين)، انتقلا الى دمشق بسبب عمل الوالد هناك. كان من المألوف في الأسر المسيحية ان يُعطى الطفل اسم قديس عند المعمودية، إضافة الى الاسم الأصلي إن لم يكن الإسم نفسه يتصف بالقداسة. لما عُمّد الطفل نقولا، بقي اسمه نقولا تيمناً بالقديس نقولا حامي الحجاج والمسافرين.

في العام ١٩١١، أرسلته عائلته الى مدرسة الفرير الواقعة بالقرب من المنزل. وبما أن والده كان ملماً بالعربية، فقد عاونه في فهم هذه اللغة وفي إجادتها.

مع إندلاع الحرب العالمية الاولى أُجبر والده على الدخول الى الجندية. وما لبث أن قتل في أثناء الحرب العالمية الأولى، تحديداً في العام ١٩١٦. فاضطرت العائلة الى مغادرة دمشق مكرهة، والعودة الى الناصرة. وكانت مكوّنة من أم مريضة بمرض التيفوس وثلاثة أطفال اكبرهم الطفل نقولا، وكان تجاوز الثامنة من عمره. فور العودة، أدخله خاله الى المدرسة الرسمية الابتدائية في طولكرم. فتعلم فيها القراءة والحساب.

في أواخر العام ١٩١٦ واوائل السنة التالية، وجدت والدته نفسها أمام مسؤولية كبيرة. فهنالك أربعة اطفال يجب ان تؤمن لهم التربية اللائقة. لذلك، انصرفت الى البحث عن عمل. ولم يكن في الناصرة شيء من ذلك.

بناء على اقتراح من قريبة لها في جنين، انتقلت العائلة الى هناك، وبدأت الوالدة تعمل في مستشفى الجيش الالماني هناك. لكن المشكلة التي واجهتها، هي عدم وجود مدرسة في البلدة. فاضطر الطفل نقولا ان يمضي العامي ١٩١٧ و١٩١٨ من دون مدرسة.

في أواخر صيف ١٩١٨، ذهب الى الناصرة بزيارة جدّه. وبعد وصوله بنحو اسبوعين، دخلت جيوش الحلفاء الناصرة (٢٢ ايلول ١٩١٨)، بعدما غادرها الأتراك، وكانت جنين سقطت قبل الناصرة. فعاد اليها في ظل انتشار جيوش الحلفاء وانهزام الجيش التركي.

في العام ١٩١٩ دخل مجدداً الى مدرسة جنين الإبتدائية، وتعلم على أساتذة تلقوا علومهم في عهد السلطنة العثمانية.

كانت جنين في أواخر العهد العثماني مركز قضاء، وكان الموظف الإداري هو القائمقام. ومع ذلك، كان محيط الطفل نقولا فيها ضيقاً. وكان معلموه هم الاناس الوحيدون الذين كان يجتمع بهم باستمرار.

في أثناء لقاءاته، سمع الناس يتحدثون عن دار المعلمين في القدس. فحلم بالدخول اليها. الا ان صغر سنه وقف عائقاً دون دخوله، ففكر في البحث عن عمل لمعاونة أسرته، فتقدم بطلب للعمل في ادارة التلفون، الا ان المسؤولين رفضوه بسبب صغر سنه أيضاً.

في السنة الدراسية ١٩٢٠ - ١٩٢١، برع في الدراسة، وكان حلم الدخول الى دار المعلمين يراوده باستمرار، فقصد مختار الحارة الغربية في جنين، ورجاه اعطاء شهادة ميلاد تفيد ان عمره خمسة عشر عاماً، أي زيادة سنتي عمره، كي يتمكن من الدخول الى دار المعلمين.

الاول في دار المعلمين

في صباح السادس من تموز/يوليو ١٩٢١، وقف مع ستة وثمانين يافعاً وشاباً في صف واحد أمام مبنى دار المعلمين (الكلية العربية في ما بعد)، تمهيداً لدخول قاعة الإمتحان.

انتهى الإمتحان في يوم ونصف اليوم، وخرج نقولا من جميع الإجراءات حاملاً ورقتين تعلنان قبوله طالباً في دار المعلمين، وتحددان لائحة بالثياب التي يجب أن يحضرها معه، وكيف يجب ان تكون الأحرف الاولى من اسمه مطرزة على الثياب التي تذهب الى التنظيف.

في ما هو يقفز فرحاً وحبوراً، إذا بيد تقع على كتفه، فالتفت، فاذا بالمدير يقول له: «انت يا ولد صغير، لكننا اضطررنا الى قبولك لانك أجدت في الإمتحان وكنت الاول. لكن عندما تعود الينا في مطلع العام الدراسي المقبل يجب ان يزداد طولك شبراً على الاقل!».

كان انتقاله من جنين الى القدس في خريف العام ١٩٢١، خطوة كبيرة احتاج الى بعض الوقت كي يستوعبها. وفي دار المعلمين، تتلمذ على اساتذة، يمثلون نواح مختلفة للتعليم الجامعي.

أتاحت له هذه المؤسسة المجال لقراءة الصحف المصرية اليومية (الأهرام والمقطم)، وللإطلاع على أخبار العالم. يومها (١٩٢١ - ١٩٢٤) لم تكن ثمة إذاعات في العالم العربي. وكانت الصحف المصرية تصل القدس بعد نحو ثلاثين ساعة من توزيعها في القاهرة. أما الصحف الفلسطينية التي كانت معروفة في ذلك الوقت، هي الكرمل (حيفا)، فلسطين (يافا)، مرآة الشرق وبيت المقدس (القدس).

بعد دخوله الى دار المعلمين استقرت عائلته في نابلس. وبعد انتهاء دراسته (١٩٢٤)، أمضى فترة من الوقت فيها، وكان يأمل ان تخوّله الشهادة الإنتقال من حال الفقر الى حال الراحة والاستقرار المادي.

في اثناء دراسته، تأثر بكتاب شبلي الشميّل «مجموع المقالات»، ففتح أمامه آفاقاً واسعة، وادخلته في دوامة من التساؤلات حول: هل من الضروري ان تؤدي الدراسات العلمية، خاصة في علوم الأحياء الى الإبتعاد عن الدين؟

بعد دار المعلمين، تقدم الى امتحان إدارة معارف فلسطين (وكان يخول الناجح فيه الدخول الى الجامعة)، فنجح بإمتياز في العام ١٩٢٧. عندها خطرت له فكرة العمل للحصول على درجة بكالوريوس من جامعة لندن كطالب خارجي. وهذا نظام كان يمكن إتباعه، فيحصل الطالب على الشهادة الجامعية الاولى وحتى على الدكتوراه كطالب خارجي.

بعد فترة من الزمن تحديداً في العام ١٩٣٥ سافر الى لندن لإكمال دراسته فيها عن قرب. وكانت تكوّنت لديه مجموعة من القناعات تتعلق بالقومية، وشبه قناعات مرتبطة بفهمه للقومية العربية. فقد صرف آخر سنتين في عكا، قبل سفره الى لندن، في القراءة وفي الإمعان في هذا الموضوع.

بعد وصوله الى لندن، تعرف على مجموعة من كبار المفكرين والأساتذة، وتلقى تدريباً في الترجمة من العربية الى الإنكليزية، وشارك في المحاضرات حول المؤسسات والنظم الإسلامية، والجغرافيا الاقليمية...

خلال السنوات الاربع التي امضاها في الغرب، تعلم كثيراً. وكان هذا التعلم، في غالب الحالات، أساسه الاكتشاف لا السماع والقبول. وكان أكتشافه لشؤون انكلترا الاوسع والأعمق، تلاه المانيا ومن ثم فرنسا. ولم يعد هذا الامر الى المدة التي أمضاها في كل من هذه البلاد فحسب، لكن أحد الأسباب الرئيسة كانت معرفته للغة.

كان الإنطباع الاول بعد زيارته الاولى الى باريس (١٩٣٧) هو أن هذه المدينة غانية تجيد تجميل نفسها. أما لندن فهي بنظره آية في دقة التعبير، من الضروري اكتشافها جزءاً جزءاً وقطعة قطعة. من جهتها المانيا دفعته الى اكتشاف تاريخها.

الثورة الكبرى

المرحلة الأكثر حساسية بالنسبة اليه في تلك الفترة، انه عاش في العاصمة الانكليزية، في الفترة التي اندلعت فيها الثورة الكبرى في فلسطين (١٩٣٦ - ١٩٣٩)، الامر الذي دفعه الى التعمق في دراسة هذا المجتمع الذي كان له الدور الأكبر في اندلاع القضية الفلسطينية وفي تقسيمها.

في تلك الفترة، حضر خطاباً القاه الزعيم الصهيوني برودتسكي عن قضية فلسطين، قال فيه أن الامير فيصل وافق على مجيء اليهود الى فلسطين، وقف وسأله: «الا يعرف الاستاذ برودتسكي ان الأمير فيصل، اشترط تحقيق الوعود الإنكليزية مقابل الموافقة؟» أجاب: «أنا لا يهمني أحد...» عندها شعر بأمور ثلاثة: الدم يغلي في عروقه، والغصة تعتصر قلبه، والدمع يتجمع في مآقيه... ولعل هذه كانت كلها ردة فعل منه لوقاحة الرجل ولانعدام النصير، ولتعثر العرب، في فلسطين، وفي غيرها، في تنظيم الدعاية للقضية والعمل لها.

في أواخر نيسان/ابريل ١٩٣٦، عاد الى لندن بعدما أمضى عطلة عيد الفصح في المانيا، فاذا به يعلم أن مؤتمراً انعقد في القدس في الخامس والعشرين من نيسان ١٩٣٦ نتيجة للإضراب العام الذي أعلن في البلاد قبل ذلك بأيام، وقرر توحيد العمل السياسي على يد اللجنة العربية العليا التي ضمت أعضاء من جميع الأحزاب الفلسطينية، وكان فيها ممثلون عن المستقلين. ولكن عندما عاد ثانية من المانيا حيث أمضى فصل الصيف الى لندن فوجئ بأن الثورة توقفت وتوقف الاضراب، بعدما تدخل الملوك العرب، إذ تعهدت لهم بريطانيا أن تعمل على إنصاف عرب فلسطين.

في العام ١٩٣٨، كان تمكن من اللغات الانكليزية والالمانية واليونانية واللاتينية الكلاسيكيتين، سافر الى فرنسا لتعلم الفرنسية، وهناك تعرف عن كثب على التاريخ الفرنسي وعلى الحضارة وعلى الحياة الصاخبة فيها.

في أثناء دراسته في لندن، تعمق في تفسير التاريخ أو فلسفة التاريخ، وقرر العودة الى فلسطين مؤرخاً. لكنه فوجئ لدى عودته في تموز/يوليو ١٩٣٩ بتبدل الحال فيها، لا سيما لجهة الحراسة الشديدة على المؤسسات الحكومية، والأسلاك الشائكة التي كانت تحيط ببعض المناطق، خاصة تلك التي يسكنها البريطانيون.

بين ١٩٤٠ و١٩٤٧ أعطى دروساً في التاريخ في المدرسة الرشيدية والكلية العربية. وآمن أن التاريخ المليء بذكرى الماضي المجيد هو مبعث الأمل وهو سرّ اللهيب الذي يشتعل من أثره كل فرد حماسة وطنية قومية، فلا يتقاعس عن القيام بواجبه متى دعا الداعي. واللغة هي العامل الرئيسي الآخر.

في تلك الفترة أصدر كتابه الاول «العالم القديم» (جزءين)، وكتاباً آخر عن تاريخ العصور الوسطى.

في العام ١٩٤٧ سافر الى جامعة كمبردج في لندن، لإكمال دراسته في التاريخ، وكانت عينه لا تزال على فلسطين التي قرر الإنتداب الانكليزي في العام ١٩٤٨ تركها الى الأمم المتحدة كي تتولى إقامة الدولتين العربية واليهودية. في العام ١٩٥٠ حصل على الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، وعين في الوقت نفسه مساعد مدير معارف برقة في ليبيا.

التحق في أواخر تلك السنة بدائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت، وظل يمارس مهامه في تدريس التاريخ حتى تقاعد في العام ١٩٧٣، وتحوّل الى استاذ شرف في تلك الدائرة.

عمل استاذاً زائراً في جامعات عالمية، منها هارفرد، وعين شمس، والجامعة الاردنية، والجامعة اللبنانية.

له مؤلفات عديدة باللغتين العربية والإنكليزية أبرزها «أزمة الإنسان الحديث»، «تاريخ العرب»، «تاريخ البشرية»، الى جانب مقالات ومحاضرات بالعربية والإنكليزية تناولت في مجملها تاريخ الشرق الأوسط وافريقيا الشمالية. كما كتب مذكراته من جزءين في عنوان «أيامي».